

عبد الغفار مكاوي

محاولة لقراءة فكره

بقلم: د. حمدي بشير محمد علي (*)

يعتبر عبد الغفار مكاوي من صفوة المثقفين وخيرة المبدعين وطلبة المترجمين والباحثين، يمكن تصنيفه من الجيل الفلسفي الجديد الداعي لعقلانية عربية متنورة ذات طابع تحرري ديمقراطي وتجديدي، وكان سفره إلى ألمانيا فرصة للغوص في مكونات الأدب والفلسفة الألمانية مما فتح له أبواباً على الفلسفة المثالية الألمانية وفلسفة هيدغر توصله لنيل شهادة الدكتوراه في العام ١٩٦٢م، ولذلك كان فكره همزة الوصل والاتصال والحوار التاريخية الضرورية بين ثقافتين وعالمين: العربي والغربي، وجسر عبور وافتتاح نحو الآخر عبر ترجماته وكتاباته واختياراته في الشعر والفلسفة والفكر، مما يشكل إعادة نظر في الأسئلة المطروحة منذ ما ندعوه بعصر الإحياء أو النهضة العربية في القرنين المنصرمين وتقديم إشكالياتها وحقلها العام في ضوء جديد يجلو أبعادها ويعيدنا إلى جذورها، أي إلى نواتها الأولى. ورغم رحيله (عن عمر يناهز ثلاثة وثمانين عاماً في ٢٤ ديسمبر ٢٠١٢) فسيظل حاضراً في المشهد الثقافي والفكري المصري بآثاره الفكرية والأدبية، وأهمها مدرسة الحكمة، المنقذ، الحكماء السبعة، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، نظرية أفلاطون عن الحقيقة، جذور الاستبداد، بالإضافة إلى ترجمته لأعمال كانط وهيدجر وأعمال أدبية ونقدية كثيرة.

ورغم تخصصه في الفلسفة الغربية على كثرة تياراتها ومذاهبها، فقد اهتم أيضاً بالفلسفة الشرقية لمصر القديمة ووادي الرافدين والسومريين والبابليين والآشوريين، حيث يتضح من القراءة التحليلية لفكره مدى إنجذابه لأدب العصور القديمة، الأمر الذي دفعه لتأليف كتابه (جذور الاستبداد) الذي عرض فيه كيف أن أزمة الحكم الفردي وجبروت التسلط المطلق لـ

(*) باحث ومحلل سياسي - عضو المكتب الفني لوزير التجارة والصناعة.

تكن في أحد جوانبها إلا انعكاساً لأزمة الحكم الإلهي نفسه، وكان هدفه من هذا الكتاب قراءة نصوص أدب الحكمة البابلية قراءة تقرّبها للقارئ المعاصر وتكشف له عن أعماقها الدفينة بعد تاريخ طويل من نظم الحكم والقيم والمعرفة والوعي على مدى ثلاثة آلاف سنة أو يزيد، والنظر في جذور اللاحرية والظلم والقهر الذي عاناه أبناء حضارتنا القديمة ولم تنزل ظلاله و أصدائه المعتمة تتردد حتى اليوم في صرخات الشكوى والشك.

ولعل إيمانه بالحرية هو ما جعله يكتب هذا الكتاب الذي ربط فيه بين الإنتاج الأدبي في العصور القديمة، وأنظمة الحكم الاستبدادية، حيث يقدم قراءة وافية لأشهر النصوص البابلية في إطار سياقاتها المختلفة، قراءة تاريخية-ذاتية ونقدية في آن واحد، و قراءة تهدي بفلسفة التفسير أو التأويل المعاصرة، بحيث يتحول فعل القراءة إلى تجربة حية يتعاقق فيها الحاضر والماضي، وينصهر أفق القارئ المعاصر بقدر الطاقة مع أفق الكاتب، فليست حضارتنا القديمة هي «حضارات الموت والظلام» التي انقضت وإنما هي تراث عريق وثقيل لا تزال جوانبه السلبية فعالة في تكويننا وسلوكنا الحاضر، ويتوجب علينا نحن أن نستوعبه وننقده لكي نتجاوزه بإبداع تراث جديد أكثر حرية وعدلاً وأملاً وأقل بؤساً وظلمًا واستبدادًا.

ويكشف كتاب جذور الاستبداد أيضًا عن شخصية الرجل الذي يمتلك الجرأة لقول ما يعتقد حقا ويدافع عنه بقوة الفيلسوف وبلاغة الكاتب المتمكن دون أي اعتبار، فقدم دراساته في نقد الاستبداد بكل صوره، وكان هذا جانب أصيل في تجربته الفلسفية والسياسية، ويكشف عن تأثيره بشدة لما يحدث في الواقع العربي، ومحاولته التغيير عن طريق الفكر والإبداع وليس عن طريق العمل السياسي.

وفي رأيه أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا وأن لكل حادثة من الحوادث التاريخية التي تبدو متشابهة أو متقاربة طبيعتها الخاصة وسياقها المحدد بظروفها وأسبابها ونتائجها المختلفة، وأن علم التاريخ الذي يبحث عن الحقيقة الموضوعية الخالصة لا يجوز له أن يصبح فرعاً لعلم الوراثة أو علم النفس والطباع، وإذا كان الطغيان الذي تعددت أشكاله ودوافعه وآثاره على مر العصور هو الذي يوحي بذلك التشابه فإن هذا لا يعفي المؤرخ من دراسة كل حالة على حدة و كل حدث في سياقه الخاص حتى لا يقع في مخاطر الإسقاط والهوى والتعميم.

وقد انتقد نظرية صدام الحضارات لهنتجتون، وأكد أن مصطلح صراع الحضارات مفهوم استعماري خاطئ، قصد به مصلحة أمريكا والصهيونية، واستثمر في العراق في أسوأ صورة على حساب الشعب العراقي، وربما يجرب في بلاد عربية أخرى، وإن هذا المفهوم من صنع أجهزة الاستخبارات الغربية، ويعتبر هنتجتون عالماً مزيقاً لأنه يغالط في الحقائق، وفي معلوماته عن الفكر الشرقي سواء كان عربياً إسلامياً، أو شرقياً صينياً.

ولذلك فهو يرى أن المهمة المنتظرة من الشرقي المشتغل «بعلوم الحكمة» هو بلورة نسق فكري محكم مترابط من المفاهيم، لمواجهة جدل الصراع الحتمي الذي كتب على أبناء هذا الجيل والأجيال التالية أن يخوضوه في سبيل تأسيس الحرية، وفي هذا النسق تلتئم معاني التقدم والتحرر والنهضة والوعي والتحضر والتغيير والتنوير.

ويرى أن التغلغل في أزمت الإنسان العادي وآلامه الجسدية والروحية وفي أحشاء واقعنا الذي يغص بالأحزان والآمال الفردية والجماعية المحبطة وتحليلها وردّها إلى عناصرها و«ثوابتها وبنائها اللازمية وسط خضم التحولات والضغوط التي تنهال عليه وتجرفه بعيداً عما نسميه الأصالة والهوية وتحقيق الذات والإبداع والحرية... الخ كل ذلك هو الضمان الوحيد.

ومن هنا يغترب «الفلسف» عن حقيقته وواقعه أو تغترب الحقيقة والواقع عنه سواء عند الإطلال عليها من برج منطقي وجدلي متعال عليها أو من ناحية أخرى في السقوط في حمأة التشوش الغوغائي والخطابي وحمياه والغرق في دوي الطبول والأبواق التي تدق عليها وتنفخ فيها الأنا الترجسية المتضخمة المتصارعة على الشهرة الرخيصة والمجد الزائف.

وهز يرى أن البداية «الاستقرائية» تساعد الفيلسوف على وضع قدميه على الطريق الطويل نحو فكر عربي مستقل وناج من واقعه ومتحرر من القوالب الجاهزة التي طالما حشر فيها رغم أنفه، والبداية الحقيقية-أو إحدى البدايات على أقل تقدير-للتأسيس النظري والمنهجي لـ «فلسفة عربية» مستقلة وحميمة، كثر التساؤل عنها، وطال اقتقادها، وانتظار فجرها الذي بدأت خيوطه الأولى في الفترة الأخيرة في اختراق ظلمات الليل العربي على استحياء...، إن الرجل العادي أو الإنسان الصغير كما يسمى في بعض اللغات ينتظر «سقراط الجديد» يتوقع منه أن يلتفت إلى معاناته التي يكاد تاريخ الفلسفة أن يخلو منها وذلك قبل أن يبلورها في نسق فكري

متربط، وليس معنى هذا أن نطالب «المتفلسف» العربي بأن يكون شاعرًا وفنّانًا ولا حتى بأن يكون باحثًا ميدانيًا بل معناه أن نطالبه بالبده من التجربة الحية ومشاركة «الناس» الذين طالما تجاهلهم الفلاسفة مواقفهم وتجاربهم واختياراتهم... إلخ، قبل تحليلها وتفسيرها وردها إلى شروطها وأسسها الأولى، فالفلسفات الكبرى تؤكد أنها لم تخل أبدًا من قدر من المشاركة في «الواقع» والتعاطف معه أو الاندهاش منه ومحاولة تجاوزه ونقده والشك في أوضاعه وأنها لم تنفصل عنه ولا قصرت في القيام بدورها النقدي له بأساليبها الصورية والتعميمية المجردة وغير المباشرة، وأن تكون مشاركة الناس حياتهم وتبصيرهم بحقيقتهم وحقائق واقعهم وتقديم دليل عقلي وعملي يوجه تفكيرهم واعتقادهم وسلوكهم ويساعدهم على «صنع» حاضرهم وتشكيل مستقبلهم إلى غير ذلك من مهام معرفية وأخلاقية وجمالية، وإن تكون هذه وغيرها هي بعض الواجبات الملقة على «سقراط العربي».

ثم يعرض كيف طبق هذا المنهج في كتابه جذور الاستبداد في الصفحات الأولى تحت عنوان: «حكمة بابل فلسفة هي أم حكمة؟»، بهدف تفنيد الرأي الشائع-صراحة أو ضمنا- لمعظم مؤرخي الفلسفة الغربية وأتباعهم من الشرق وهو أن الفلسفة-معناها العقلي والمنهجي الذي اتخذته منذ نشأتها مع العلم ومحاولاتها للانفصال عن الدين والأسطورة في مجتمع دولة المدينة اليونانية الحرة-شيء غربي-محض، وأن «حكمة» الشرق-الدينية والأخلاقية المتجهة في جملتها إلى الخلاص والتطهر والتوافق مع الطبيعة الخارجية أو الداخلية لا السيطرة عليها والتحكم فيها-كانت في أفضل الأحوال مجرد طرقات على بابها أو بشائر من نور فجرها بحيث يستطيع المؤرخ الغربي أن يغفلها من حسابه دون أن يشعر بالخسارة أو بتأنيب الضمير.

ولذلك نجده يناقش بشيء من التفصيل هذا التمركز الغربي حول الأنا المتسلطة والمسيطرة حتى اليوم على الباطن والظاهر والإنسان والطبيعة، ويخلص إلى استحالة إنكار وجود «فلسفة» شرقية بالمعنى العام الذي يفهم من مجموعة الرؤى الكلية والمواقف التأملية في مغزى الحياة والموت والخلق والمصير والخير والشر، والعدل والظلم، والاختيار والجبر... إلخ، مهما جاءت هذه التأملات في الإطار الديني والأخلاقي الموروث، وفي لغة المجاز الشعرية والأسطورية، وإن هذه القضية تكاد اليوم أن تكون محسومة إذ ترسخ الاقتناع لدى المنصفين الغربيين أنفسهم بأن للحكمة الشرقية حقها المشروع في الوجود داخل الإطار النوعي الخاص بها، لكن الأهم من ذلك-في تقديره-هو المهمة الملقة على أبناء الشرق أنفسهم-والعرب بوجه خاص في تشييد

أبنتهم النظرية وأنساقهم الفكرية والمعرفية التي تتبع - كما ذكر - من تجارب واقعهم المأزوم، وتتمتع بقدر معقول من الاستقلال والخصوصية التي لا تنزلق إلى مهاوي التعصب ولا تندفع إلى التطاول على «الآخر» بدلاً من نقده نقداً حراً أميناً أو التحدي الفج الذي تتردد صيحاته المتشنجة كثيراً في هذه الأيام.

ويستطرد قائلاً: «أن مواجهة المعاناة المتجددة من الطغيان على اختلاف صورته تأتي في مقدمة هذه التجارب كما أن محاولة بلورتها» فكرياً كما سبق القول أن تكون إضافة أساسية إلى الفلسفة أو «الحكمة العالمية» كما سماها «كانط» وخطوة مهمة على طريق الأصالة المنشودة من جانب الشرقي الذي يواجه في الوقت نفسه محاولات ضارية مستميتة على كافة المستويات لتكريس تبعيته لنموذج الآخر المستغل المهيمن، الأمر الذي يساعده على الخروج من مأزق الحكم عليه بالانتحار الحضاري.

ويقول: أن الفكر المعاصر يضع الإنسان في موضع القلب من اهتمامه، فهل أن الأوان لكي نهتم بالإنسان بكيانه العيني الحي الدافئ بدلاً من الاختناق في قبضة المجرّدات الهابطة علينا من أعلى؟ كيف نوفق بين السر الذي ورثناه في دمنا من الحضارة القديمة وبين اللوجوس؟ كيف نناغم بين التراث والتقنية التي لا غنى عنها؟ كيف نتجنب آفات الروح الغربية من ضياع الروح والانغماس في روتين الآلة والعمل وانكماش الضمير مع تضخم العضل، ونظل مع ذلك معاصرين ومستعدين لتحدي العصر؟ كيف نجانس بين قيمنا وآمالنا؟

ويجيب د. مكاوي بوضوح مؤكداً: ما زلت أذكر هذا البيت النادر من «فاوست الثانية»: «لا يستحق الحرية والحياة إلا من يغزوها كل يوم .. في كل لحظة .. في كل فعل ..» لكن كيف؟ بالمشاركة .. فالحرية الحقيقية ليست حرية من أجل .. بل حرية لأجل .. لأجل ماذا؟ ويكمل مشدداً: الحرية تؤكد التحرر من الباطن .. والمسؤولية هي صميم التحرر .. والاتجاه إلى مشكلات أمتنا هو لب المسؤولية .. والشخص الحي المشارك الواعي بتفرد لحظته التاريخية هو حامل هذا كله، الفيلسوف يمكن أن يكون في صميمه فناً وأديباً انتزع الفكرة المجردة من إطارها المحسوس وقنع بالنواة الجافة دون الثمرة الحية، وأن الفنان والأديب في حقيقتيهما فيلسوف كما الفكرة بالصورة الحسية وأحيائها بالعاطفة الجياشة. ولن يرضى الفيلسوف أن نجعله شاعراً أو أديباً، كما لن يسعد الأديب والشاعر أن نحشرهما مع الفلاسفة في نظام أو نسق فلسفي محدد .. ولكن المقصود أن التفاعل بينهما عميق وأكيد وإن يكن غير مباشر

وشديد التعقيد، وأنه قد آن الأوان لرفع الحواجز السميكة وإزالة الأسلاك الشائكة التي طالما فصلت بينهما.

وحاصل القول، أن ما يمكن تحصيله وتلخيصه عن الدكتور عبدالغفار مكاوي هو انه عاش عمره المديد باحثاً دؤوباً ودارساً مدققاً وناقداً رقيقاً متفلسفاً وفيلسوفاً شاعراً، مترهبناً في محاريب الفن والأدب والفلسفة، انتهج منهج الحدس العاطفي والوجداني مع النصوص الأدبية والفلسفية، وكان حريصاً كل الحرص كله على ألا ينأى بنفسه عن واقعه وألا يكون محابداً تجاه الإنسان وقضاياها، بل إنه سعى إلى بلورة نظرة فلسفية تتيح له التأمل الهادئ والتقليب المستمر في بنيات عالمه، وظل في كل ميدان ومضمار متمكناً أدواته، باحثاً عن الحقيقة أينما كانت. ولذلك تنوع إسهامه الفكري المتشعب فقدم خدمات عديدة للأدب الحديث والفكر المعاصر، ليرى يحظى بالاهتمام البالغ، والتقدير الأديبي، من رجالات الفلسفة والأدب والثقافة والصحافة والإعلام.